محمد بن أبي القاسم بن محمد، الفخر[1]

أبو عبد الله ابن تيمية، الحَرَّاني.

خطيب حَرَّان وفقيهها، وبها ولد، وقدم بغداد، وتفقه، ووعظ، وسَمِعَ الحديث الكثير، وصنَّف الخُطَب والتَّفْسير وغير ذلك، وكان فاضلاً، فصيحاً، أنشد على المنبر: [من السريع]

أحبابَنا قد نَذَرَتْ مُقْلَتي ... ما تلتقي بالنَّوْم أو نلتقي
رِفْقا بقَلْبٍ مُغْرَمٍ واعطُفوا ... على سَقَامِ الجَسَدِ المُعْرَقِ
كم تَمْطُلوني بليالي اللِّقا ... قد ذَهَبَ العُمْرُ ولم نلتقِ

وقال الجمال بن دبوقة، كاتب الملك الأشرف: كنت بحرَّان سنة مات ابنُ تيمية، فجلس يوم عاشوراء ومدح معاوية بنَ أبي سفيان على المنبر، وبالغ وأطنب، فاختلط على المنبر، ونزل مريضاً، فأقام إلى يوم الخميس خامس صفر يعاني أمراضاً صعبة، ومات فيه، وكان يقول: ما قتلني إلا يومُ عاشوراء.

السنة الثالثة والعشرون وست مئة

فيها قدم محيي الدِّين بن الجوزي دمشق رسولاً إلى المعظم، ومعه الخِلَعُ لأولاد العادل من الخليفة الظَّاهر، ومضمون رسالته رجوع المعظم عن الخوارزمي.

قال المصنف رحمه الله: قال لي المعظم: قال خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي إلى إخوتك، ونُصْلح بينكم. وكان المعظَّم قد بَعَثَ الرَّكين مملوكه إلى الخوارزمي، فرحَّله من تفليس، وأنزله على خِلاط، والأشرف بحرَّان. قال: فقلتُ لخالك: إذا رجعتُ عن الخوارزمي وقَصَدني إخوتي، تنجدوني؟ قال: نَعَمْ، فقلتُ: ما لكم عادة تنجدون أحداً، هذه كُتُبُ الخليفة الناصر عندنا، ونحن على دِمْياط، ونحن نكتب نستصرخ به، فيجيء الجواب بأَنْ قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة، ولم يفعلوا. قال:

(١) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ١٣٨ـ١٣٩، و«المذيل على الروضتين»: ١/ ٣٨٢-٣٨٣، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

قلتُ له: مثلي معكم كمثل رجل كان يخرج من وقت السَّحَر من داره يصلِّي في المسجد، وبيده عُكَّازٌ خوفاً من الكلاب التي للمحلَّة، فقال له بعضُ أصدقائه: أنتَ شيخٌ كبير، وهذا العكاز يثقلك، وأنا أُعَلِّمك شيئاً يغنيك عن حمله، قال: وما هو؟ قال: تقرأ سورة يس عند خروجك من الدَّار، وما يقربك كلب. وأقام مُدَّة، فرأى الشيخ في بعض اللَّيالي حاملَ العكاز، فقال له: ما قد علمتك ما يُغْنيك عن حمله؟! فقال: هذا العكاز لكلبٍ لا يعرف القرآن. وقد اتَّفق إخوتي عليَّ، وقد أنزلتُ الخوارزمي على خِلاط، إنْ قصدني الأشرفُ مَنَعَه، وإنْ قصدني الكامل فيَّ له.

وفيها قَدِمَ الأشرفُ [دمشق][1]، وأطاع المُعَظَّم، وسأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خِلاط، وقال: نحن مماليكك، وما أنبت الشَّعَرَ على رؤوسنا إلا أنتَ. فبعثَ المعظَّم، فرحل الخوارزمي عن خلاط، وكان قد أقام عليها أربعين يوماً، ونزل الثلج، وأقام الأشرف عند المعظم بدمشق، وكان المعظَّم يَلْبَس خِلْعة الخوارزمي، ويركب فرسه، وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظَّم برأس خوارزم شاه، وعند الأشرف من هذا المُقْعد المقيم، وهو ساكت.

[[2]وفيها توجه خالي إلى مصر إلى الكامل، وهذه أول سفرة سافرها خالي إلى الشام ومصر].

وفيها توفي الجمال المِصْري القاضي، وولَّى المعظَّمُ الخُوَيِّي، واسمه أحمد بن خليل بن سعادة، [وكنيته أبو العباس][1]، استدعاه، وعَرَضَ عليه القضاء، فامتنع، وقال: أنا رجلٌ غريب، والدَّماشقة فيهم كَثْرة، فقال: لا بُدَّ. فولاه قضاء القضاة في ربيع الآخر، وخَلَعَ عليه.

قال المصنف رحمه الله: وفيها فَوَّض إليَّ المعظم التدريس بمدرسة شِبْل الدولة بقاسيون، وحضر أعيان دمشق، [ولم يتخلف منهم أحد][1].

وحج بالنَّاس من العراق ابنُ أبي فراس، ومن الشام عليّ بن السَّلَّار.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) في (ح): وتوجه محيي الدين بن الجوزي إلى مصر إلى الكامل...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

وفيها توفي

إبراهيم بن موسى المبارز المعتمد[١]

ولد بالمَوْصِل، وقدم الشَّام، وخَدَمَ فَرُّخْشاه بن شاهنشاه [ابن أخي صلاح الدين][٢]، وتقلبتْ به الأحوال، واستنابه بدر الدين الشحنة بدمشق، ثم ولاه العادل مستقلاً، فأحسن السِّياسة، ولَطَفَ بالرَّعية، [فكان للكبير منهم ولداً، وللصغير والداً، وللمتوسط أخاً، وله واقعات عجيبة.

ذكر طرف من أخباره:][٢]

وكان دَيِّناً، ورعاً، عفيفاً، نَزِهاً، اصطنع عالَماً عظيماً من النِّساء والرجال، [[٣]وسَتَرَ عليهم كبائر الأحوال، وكانت دمشق في أيام ولايته حُرَّة طاهرة، ودلائل الخيرات بها ظاهرة، ومما جرى له أنه كان في دمشق] رجلٌ فاتك، وإلى جانب بيته قومٌ لهم ولدٌ صغير، في آذانه حَلَقٌ من ذهب، فاغتاله الرجل يوماً، فخنقه، وأخذ الحَلَق من أذنيه، وأخرجه في قُفَّة، ودفنه بالباب الصَّغير، وفقدته أمه، فاتهمتِ الرَّجلَ به، فعذَّبه المبارز عذاباً أليماً، فلم يُقِرَّ بشيء، فأطلق، وفي قلب المرأة النَّار [من فقد ولدها][٢]، فطلَّقَتْ زوجَها، وتزوَّجتِ القاتل، وأقامت معه مُدَّة، فقالت له يوماً وهي تداعبه: قد مضى الابنُ وأبوه، وكان منهما ما كان، ـ [وكان الزوج قد مات][٢] ـ أنتَ قتلتَ الصَّغير؟ فقال: نَعَمْ، وأخذت الحلق، ودفنته بالباب الصَّغير. فقالت: قُمْ، فأرني قبره. فخرج بها إلى المقابر، وحفر القبر، فرأت ولدها، فلم تتمالك أَنْ ضربتِ القاتلَ بسكِّين أَعَدَّتْها له، فشقَّتْ بطنه، ودفعته، فألقته في القبر، وجاءت إلى المبارز، فحكت له الحكاية، فقام، وخرج معها إلى القبر، فكشفته له، فقال: أحسنتِ والله، ينبغي لنا أن نَشْرب لكِ فُتوَّةً[٤].

---

(١) له ترجمة في «المذيل على الروضتين»: ١/ ٣٩٣-٣٩٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) في (ح): وكانت دمشق في أيام ولايته طاهرة، وكان في أيامه بدمشق رجل فاتك إلى جانب...، وما بين حاصرتين من (ش).

(٤) كان من تقاليد الفتوة شرب كأس الفتوة، وهو يحتوي على الماء والملح، انظر «مفرج الكروب»: ٣/ ٢٠٦ حاشية رقم (٢).

[(١)وحكى لي قال: لما حَرَّم العادل الخمر] ، ركبتُ يوماً، وخرجتُ من باب الفرج، وإذا برجل في رقبته طَبْلٌ، وهو يتمايل تحته، فقلتُ: أمسكوه، وشقُّوا الطبل. فَشَقُّوه، وإذا فيه زُكْرةُ خَمْر، فبدَّدْتُها، وضرَبْتُه الحَدَّ، فقلتُ له(٢): من أين علمتَ؟ قال: رأيتُ رِجْلَيه وهي تلعب، فعلمت أنه قد حَمَلَ شيئاً ثقيلاً.

وكان لداره بابان: الباب الكبير عليه الغِلْمان والنُّواب، وباب السِّرِّ في زُقاقٍ آخر، فكان النواب إذا أمسكوا في الليل امرأةً من بيت معروف، وحملوها إليه يقول: انزلوا حتى أقرِّرها، ثم يقول لها: [يا بنتي](٣)، أنتِ من بيتٍ كبير، ورجالك معروفين(٤)، فما الذي حملك على هذا؟ فتعتذر بما يتفق، فيقول لها: سَتَرَ الله عليك. ويبعث معها الخدم من باب السِّرِّ إلى بيتها. فأقام على هذا نحواً من أربعين سنة.

وكان في قلب المعظم له شحناء، لأَنَّه كان يُشْفِقُ عليه، ويحفظه في أماكن يدخل إليها بدمشق في الليل، وهو شابٌّ، فيأمر غِلْمانه أن يتبعوه من بعيد، وكان العادل من مِصْر يكتب إليه بذلك، فلما مات العادل [أظهر ما كان في قلبه منه، و](٣) اعتقله مُدَّة في القلعة، فلم يظهر عليه ولا على أحدٍ من أولاده وحاشيته أَنَّه أخذ من الرَّعية ما مقداره مِثْقال حبة خَرْدل، [ولا غيَّر ما كان عليه من العفة والأمانة والصلاح والديانة، ولا غيَّر ولا بدَّل](٣) فأنزله من القلعة إلى داره، وحَجَرَ عليه، وبالغ في التَّشديد [والعجب من الحجر على الحر البالغ العاقل الرشيد](٣)، وكانت وفاته في حادي عشرين ذي القَعْدة يوم السبت، ودفن بقاسيون في التربة التي أنشأها بالجبل عن ثمانين سنة.

وحكى أنه ولي دمشق نيابةً عن بدر الدين الشحنة أول ولاية صلاح الدين، ثم استقلَّ بالولاية إلى أن عُزِلَ سنة سبع عشرة وست مئة، [وصلاح الدين فتح دمشق سنة سبعين أو إحدى وسبعين](٣) فكانت ولايته نيابةً واستقلالاً قريباً من خمسين سنة، ولم يُؤْخذ عليه شيءٌ إلا أَنَّه كان يحبس وينسى، فعُوقب بمثلِ ذلك؛ أقام محبوساً خمس سنين إلا أياماً.

---

(١) في (ح): وقال: ركبت يوماً...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) في (ح): فقيل له، والمثبت من (ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (ش).

(٤) كذا، على اللفظ العامي.

قال المصنف رحمه الله: [وجرت لي معه واقعة عجيبة][1]، كنتُ ليلةَ كلِّ جُمُعة أزوره، وانقطعتُ عنه مُدَّة [بسبب غلق داره في بعض الأوقات][1]، فرأيتُ في المنام كأَنَّ قبره في رَوْضةٍ خضراء، وهو معمول بالفَصِّ الأخضر، وليس هو من جنس فصوص الدُّنْيا، فطربتُ لحُسْنه ورونق المكان، فَهَتَفَ بي هاتفٌ، وقال: لو رأيتَ ما في باطن القَبْر. قلتُ: وما في باطنه؟ قال: الدُّرُّ والياقوت والمَرْجان، وما يستغني عن قراءة كتاب الله تعالى، فانتبهتُ وفهمتُ الإشارة، فأنا في كلِّ ليلة أقرأ ما تيسَّر من القرآن، وأهديه إليه، وإلى أَهْلي وأصحابي ومعارفي. فرضي الله عنه رضى الأبرار، وجمعني وإياه في دار القرار، فقد كان محسناً إليَّ، [ومتفضلاً عليَّ، خدمني بنفسه وجاهه وماله، وجمع لي بين خيري الدنيا بتفضله وإفضاله][1].

[فصل: وفيها توفي

البدر الجَعْبري[2]

والي قلعة دمشق، أقام والياً لها مدة، وكان ذا مروءة، خدم الظاهر بحلب وغيره، وحمل إلى بالس، فدفن عند أهله].

كافور بن عبد الله[3]

شِبْل الدَّوْلة، الحسامي، خادم سِتّ الشَّام.

كان عاقلاً، دَيِّناً، صالحاً، له حرمة وافرة في الدَّوْلة، ومنزلة عالية عند الملوك، بنى مدرسة على نهر ثورا لأصحابِ أبي حنيفة وتُرْبة، ووَقَفَ عليهما الأوقاف، ونقل إليهما الكُتُبَ الكثيرة، وفَتَحَ للنَّاس طريقاً من الجبل إلى دمشق قريبة عند العقارات على طريق عين الكرش، وبنى المصنع الذي على باب الزُّقاق وخانكاه الصُّوفية إلى جانب مدرسته، ومصنعاً آخر عند المدرسة، وله صدقاتٌ دارَّة، وإحسان كثير، وتوفي في

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «المذيل على الروضتين»: ١/ ٣٩٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) له ترجمة في «المذيل على الروضتين» ١/ ٣٩٢-٣٩٣، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

رجب، ودفن بتربته [إلى جانب مدرسته][(١)]، وقد سمع الحديث [على شيخنا تاج الدين الكندي، وروى «اعتقاد الطحاوي»[(٢)] وغيره][(١)].

محمد بن أحمد الإمام الظاهر، أمير المؤمنين[(٣)]

قد ذكرنا ما جرى عليه من الشَّدائد والتعصُّب [الوافر الزائد][(١)]، وما تجرَّع من الغُصَص [في أوقاته، وما وفت ولايته مدة يسيرة بوفاته][(١)]، فكانت ولايته تسعة أشهر وأياماً، فيا ليتها دامتْ أعواماً، ولي سَلْخ رمضان، وتوفي في رجب، ومع هذا فإنه قام بأوامر الله بما وجب عليه، وغسله محمد الخَيَّاط الشَّاعر، [وحصل له مال وافر، وحُكي لي أنه][(١)] دخل يوماً إلى الخزائن، فقال له خادمٌ: في أيامك تمتلىء. فقال: ما جعلتِ الخزائنُ لتمتلىء بل لتفرغ، وتنفق في سبيل الله، فإنَّ الجمع شُغْلُ التُّجَّار.

الباب السَّادس والثَّلاثون

في خلافة ولده أبي جعفر [منصور بن محمد، ولقبه][(١)] المستنصر بالله.

بويع يوم ماتَ أبوه البيعة العامة، واستبشر النَّاس بطلعته، وسَعِدُوا بولايته، فإنَّه ظهرت منه مخايل الكرم والإحسان، والعَدْل [والامتنان][(١)]، وتوفي سنة أربعين وست مئة، وسنذكره [هناك][(١)] إنْ شاء الله تعالى.

يونس بن بَدْران، ويلقب بالجمال المِصْري[(٤)]

كان وكيل بيت المال في أيام العادل، فلما مات العادل وألبس المعظَّمُ القاضي زكي الدين الكلوتة والقَبَاء ولَّى الجمالَ المِصْري قضاءَ القُضاة بدمشق، وكان فاضلاً، عفيفاً، مهيباً، ورعاً نَزِهاً، ودُفِنَ بداره.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) يعني «العقيدة الطحاوية»، وشرحها لابن أبي العز مشهور متداول.

(٣) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ١٨٢ـ١٨٣ ، و«المذيل على الروضتين»: ١/ ٣٩٢ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ١٧٣ـ١٧٤ ، و«المذيل على الروضتين»: ١/ ٣٨٧-٣٨٨ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

هبة الله أبو القاسم ابن رواحة، أحد العدول[1]

بنى المدرسة الشَّافعية المجاورة لمدرسة الحنابلة بباب الفراديس، وأوقف عليها الأوقاف، وتوفي في رجب، ودفن بمقابر الصُّوفية.

السنة الرابعة والعشرون وست مئة

فيها عاد الأشرفُ إلى بلاده، وقَدِمَ رسول الإنبرور على المعظَّم بعد اجتماعه بالكامل، فطلب الفتوح، فأغلظ له المعظم، وقال: قُلْ لصاحبك: ما أنا مثل الغير، ما له عندي سوى السَّيْف.

وفي شعبان أمر المعظم الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغني أن يرتِّب «مسند الإمام أحمد» ـ رحمة الله عليه ـ على أبواب الفِقْه، فقعد في الكلَّاسة، ومعه جماعةٌ من المحدِّثين، منهم الشرف الإربلي، فرتَّبوه، فمات المعظم وهم على ذلك.

وحجَّ بالنَّاس من الشَّام الشجاع ابن السَّلار، ومن مَيَّافارقين الشِّهاب غازي بن العادل، وكان ثَقَلُه على ستّ مئة جمل، ومعه خمسون هجيناً، كلُّ هجين عليه مملوك، وجهَّزه الملك الأشرف جَهازاً عظيماً، وسار غربيّ الفُرَات على قرقيسيا وعانة والكبيسات والغمر والعين وشفاثا، وكلُّها قرى فيها عيونٌ جارية ونخل كثير، ومنها يجلب التَّمْر إلى الشَّام، وعلى كربلاء، فزار المشهد، ثم دخل الكوفة، وزار مشهد أمير المؤمنين علي، رضوان الله عليه.

وحجَّ بالنَّاس من العراق شمس الدين قيران مملوك الخليفة، وبَعَثَ الخليفة لشهاب الدِّين فرسين وبغلة وألفي دينار، وقال: هذه من مِلْكي، أَنْفِقْها في طريق الحج، وأوصى أمير الحاج بخِدْمته، وتصدَّق في مكة والمدينة، وعاد إلى العراق، ولم يَصِلِ الكوفة، بل سار غربيَّ الطريق التي سلكها، فكاد يَهْلِك ومن معه عطشاً حتى وصل إلى حَرَّان.

---

(١) له ترجمة في «المذيل على الروضتين»: ١/ ٣٩٠-٣٩١، وفيه تتمة مصادر ترجمته.